# صفحة بيضاء
# في تاريخ الحجر الأسود

بقلم: الأستاذ محمد الطيب النجار

- الحجر الأسود لم ينزل من الجنة ، وإنما هو من أحجار جبل أبي قبيس .
- أراد الله أن يوضع الحجر الأسود في ركن من أركان بيته المحرم ليكون علامة يبدأ منها الطواف وينتهي اليها .
- ليس تسلمه وتقبيله شرطا في صحة الطواف ولا في صحة الحج والعمرة ...

يحج المسلمون إلى البيت العتيق الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا كلما أذن الإيمان فى نفوسهم بالحج أو العمرة أو الطواف ، فتسبقهم قلوبهم إلى هذه البنية السوداء التى رفع قواعدها إبراهيم وإسماعيل . وإلى هذا الحجر الأسود الذى وضعه إبراهيم فى ركن البيت ، ثم تركه وديعة غالية حفظتها الأجيال والقرون ، حتى أن الإسلام الذى غير وبدل وهدم وأقام لم يتعرض لهذا الحجر بنقض أو هدم أو تغيير ، بل بقى فى مكانه وبقى له قدره ومكانه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عليه ويقبله وكان المسلمون من وراء نبيهم يفعلون مثل ذلك . وهم جميعا يؤمنون بأنه حجر لا ينفع ولا يضر . وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلمته المأثورة « والله إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » (١) .

وفى هذه الصفحة التى نقدمها حول هذا الموضوع - التى نرجو أن تكون بيضاء نقية من الشوائب - سنتتبع هذا الحجر ، منذ وضع فى بيت الله الحرام ونناقش ما ورد فى شأنه من آثار ، وما قيل عن حكمة تقبيله أو استلامه ، وما تعرض له من أحداث كادت تذهب به حتى ننتهى إلى هذا العصر الذى نعيش فيـــه :

(١) ذكرت هذه الرواية فى صحيحي البخارى ومسلم .

لقد وردت آثار كثيرة فى فضل هذا الحجر ، وفيها ما يدل على أنه من الجنة ، ولا بد لنا أن نقف أمام هذه الروايات وقفة الفاحص المتأمل ، الذى يلتزم الحيـــدة التامة ولا ينخدع بالعاطفة ، التى كثيراً ما تحجب الحق وتطمس معالمه .

فلقد روى عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، إن الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ، ولولا أن طمس نورهما لأضاءاما بين المشرق والمغرب (١) وفى رواية أخرى « لأضاءا ما بين المشرق والمغرب ولأبرآ ا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص » .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم » .

ويذكر العلامة تقى الدين الفاسى رواية أخرى عن ابن عباس ، تتعارض والرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسه . إذ يقول : «وإنما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة وإنه لياقوتة بيضاء » (٢) .

وهذه الروايات وأمثالها تحمل فى طياتها ما يوهنها ، اذ يتعارض بعضها وبعضا . ثم هى فى ذاتها لا تقوم على أساس ، ولا تستهدف غرضا سليما .

فأما تعارضها ؛ فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس ، تفيد إحداهما أن الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ، ثم اســـود بذنوب بنى آدم وخطاياهم ، وأما الثانية فإنها تفيد أنه قد اسود قبل أن يطوف به أحد ، ومعنى ذلك أن الذنوب والخطايا لم تغير بياضه إلى سواد ، وإنما أراد الله ذلك حتى لا ينظر أهـــل الدنيا إلى زينة الجنة ، حينما يرون الحجر وهو ياقوتة بيضاء . .

وأما أنها لا تقوم على أساس ، ولا تستهدف غرضا سليما، فلأن قيمة هذا الحجر لا تزداد إذا كان من أحجار الجنة ولا تنتقص إذا كان من أحجار الأرض، ذلك بأن قيمة الشىء إنمـا تـكون فى الجوهر لا فى العرض ، وفى اللباب دون القشور . فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب . والحصى بين اللآلىء الغالية هو الحصى بين الرمال السافية . والـكعبة المشرفة قد بنيت

(١) ذكره الترمذى فى صحيحه وقال حديث غريب .

(٢) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، لتقى الدين الفاسى ، ج ١ ص ١٦٨ ط الحلبى .

من أحجار الأرض ، ومع ذلك فهى بيت الله الذى يشع بالهدى والنور ، ويسمو على ما فى الجنة من بيوت وقصور . .

ثم ما هى الحكمة فى أن ينزل الله من الجنة ياقوتتين مضيئتين ثم يطمس نورهما ؟ إنهما إذن يفقدان خاصيتهما الكريمة ، وينزلان إلى مستوى الحصى والتراب . أو ما كان الأجدر أن يظلا ياقوتتين مضيئتين ليكونا آية الله الخالدة على الزمن ، والمنارة الهادية التى تجلو غواشى الشك وتبدد ظلمات الحيرة ؟ ثم ما هى العلاقة بين الياقوت المضيء والإبراء من الخرس والجذام والبرص ؟ وإذا قيل إن هذا الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم سودته خطايا الناس وذنوبهم ، فلماذا لم يره أحـــد من الناس فى زمن بياضه ؟ ولماذا لا يزداد اسوداداً على توالى الأزمنة والعصور ؟

كل هذه الخواطر التى تجول فى النفس تجعلنا ننظر إلى مثل هذه الروايات فى حيطة وحذر ، ونشك فى نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما أنه لم يذكر شيء منها فى الصحيحين . وحينما ذكر الترمذى الحديث المروى عن عبد الله بن عمرو قال : إنه حديث غريب ... ولا بد لنا إذن أن نتلمس السبيل إلى رواية أخرى لا يتطرق إليها مثل هذا الضعف والوهن .

ولقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه أن ابراهيم عليه السلام حينما أمره الله ببناء البيت الحرام ، قال لولده اسماعيل إن الله أمرنى أن أبنى له بيتا ، قال إسماعيل فأطع ربك ، فقال إبراهيم : وقد أمرك الله أن تعيننى على بنائه ، قال : إذن أفعل ، فقام معه فجعـــل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ثم قال إبراهيم لإسماعيل : إئتنى بحجر حسن أضعه على الركن فيكون للناس علما . فأخذ حجراً من جبل أبى قبيس ، وقيل إن جبريل أخبره بحجر هو الحجر الأسود ، فأخذه ووضعه فى موضعه . فلما ارتفع البنيان كان إبراهيم يقف على حجر وإسماعيل يناوله . وهذا الحجر هو مقام إبراهيم ، وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل حتى رفعا قواعد البيت وأتما بناءه (١)

ومن هذه الرواية الهادئة وما يؤيدها من روايات ذكرتها أمهات الكتب التاريخية يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة ، وإنما هو من أحجار

(١) نقلا بتصرف عن الكامل فى التاريخ لابن الأثير ج ١ ص ٦١ ط المطبعة المنيرية

جبل أبي قبيس أراد الله أن يوضع في ركن من أركان بيته المحرم ليكون علما، أي علامة، يبدأ منها الطواف وينتهى إليها فلما أذن إبراهيم فى الناس بالحج كان الحجر الأسود موضع بده الطواف ونهايته، وكان الطائفون يبدأون باستلامه وكأنهم يسجلون أنفسهم فى هذا السجل الخالد، ويقترن ذلك فى نفوسهم بأجل الذكريات عن النبي الكريم إبراهيم فيزداد حبهم لهذا الحجر المبارك، وينتقل ذلك من قبيل إلى قبيل، ومن جيل إلى جيل.

وقد فرض الله الحج على كل مسلم مستطيع وجعله الركن الخامس من أركان الإسلام، وجعل من أركان الحج الطواف ببيت الله الحرام، وجعل من شروط الطواف أن يكون الحجر الأسود نقطة البدء ونقطة النهاية فى المطاف، ومن السنن المأثورة عن الرسول صلى الله عليه وسلم تقبيله واستلامه..

بيد أن بعض المسلمين على طول الزمن وبعد العهد بالرسول صلى الله عليه وسلم، قد تغير تفكيرهم فأصبحوا يغالون فى تعظيم هذا الحجر حتى لقد خيل إليهم أن الحج لا ينفع إلا بتقبيله ووضع الجباه عليه. ولقد رأيت بنفسي فريقا منهم يطوفون بالبيت حتى إذا جاءوا أمام الحجر الأسود لم يكتفوا بالإشارة إليه كما هو المطلوب عند الزحام، بل سلكوا من أجل الوصول إليه سبيلا يوقظ الفتنة ويزرى بالكرامة؛ فترى الرجل منهم يدفع نفسه نحو الحجر مزاحما بل مهاجما وكأنه فى حرب مع إخوانه الطائفين. وقد تكون معه أخته أو ذات رحمه فيدفعها بعنف وقسوة حتى يرتطم وجهها ورأسها بالحجر ثم يقول لها: حجى وكأنه يرى أن الحج لا ينفع ولا يتم إلا بهذه الطريقة.

وبمثل هذه التصرفات ينفتح المجال أمام الخرافات والأباطيل التي لا تعتمد على أساس ولا ينهض بها دليل.

أجل، لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر ويقبله أحياناً، ولكن ليس ذلك شرطا فى صحة الطواف ولا فى صحة الحج والعمرة، وإنما هو لحكمة يعلمها الله وإن خفيت علينا، وليس لنا وقد آمنا بهذا الدين عن بينة إلا أن نؤمن بهذه الجزئيات ولو لم يذكر لها تعليل..

ويعجبني قول بعض الشعراء حينما منعه الزحام عن تقبيل الحجر أو استلامه فاكتفى بالإشارة إليه ثم أنشد:

أقول وقد زوحمت عن لثم أسود ... من البيت إن تحجب فما السر يحجب

فإنك منى بالمحل الذى به ... محل سواد العين أو أنت أقرب